﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حـالُ المجـرمين يوم القيامة

لمّا ذكرت الآية السّابقة إنكار المشركين للبعث، وبيَّنت أنَّهم يرجعون إلى الله ﷻ، وتقرَّر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لَبس شرع في بعض أحواله[1]، فجاءت هذه الآية ببيان حالهم عند الرُّجوع إلى الله على سبيل الإجمال بقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ يعني: لو ترى حالهم وتُشاهدُ استخجالهم لَترى عجبًا[2]، فهذه الآية نتيجةٌ مُترتِّبةٌ على الآية التي تسبقُها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَاكِسُواْ﴾: (نكس) أصلٌ يدلُّ على قلب الشَّيء، ومنه (النَّكسُ): قلبُكَ شيئًا على رأسه[3]، و(نكَسَ رأسَه)؛ أي: أمالَه، و(النّاكِسُ): المُطأطِئُ رأسَه من ذُلٍّ[4]، و(النُّكْسُ) في المرض: أن يعودَ في مرضِه بعد إفاقته، ومنه (النَّكْسُ) في العمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: 68]، ويدور المعنى المحوريُّ حول انقلاب الشَّيء أو ارتدادِه عن مُطَّردِ حاله واتجاهِه كالسَّهم المذكور، والقصيرُ ارتدَّ امتداده إلى داخله، والفرس الذي لا يسمو برأسه يتَّجه به إلى أسفلَ بعكس المعتاد من الخيل[5]، والمقصود بالآية: خَفَضوا رؤوسهم علامةً على الذُّلِّ والنَّدامةِ.

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 207.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نكس).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نكس).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حـالُ المجرمين واعترافُهم بعد فوات الأوان

جاء البيان الشّافي في الآية الكريمة الذي يرسم حال المشركين حين معاينة العذاب، فهم واقفون بين يدي الله أذلّاءَ ناكسي رؤوسِهم من الحياء والخجل، وعلى الرُّغم من ذلك طالَبوا بالرُّجوع إلى الدُّنيا ليعملوا عملًا صالحًا، يُعلنون يقينَهم بالله وصدقَ وعده، وأنَّهم قد سمعوا وأبصروا واتَّعظوا، نادمين على ما فعلوا، في مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة، والإقرار بالحقِّ الذي جحدوه، ولكنَّ هذا كلَّه جاء منهم بعد فوات الأوان، حيث لا يُجدي اعترافٌ ولا إعلانٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

استحضارُ صورة عذاب المجرمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ استئنافيَّة، وفائدتها استحضار صورة المجرمين عامَّةً يوم القيامة[1]، ويمكن أن تكون عاطفة، عَطَفت جملةَ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ على: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ [السجدة: 11] في الآية السّابقة عليها، فهي داخلة تحت الفعل: ﴿*قُلۡ﴾ [السجدة: 11] السّابق في قوله تعالى: ﴿*قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: 11]؛ والتَّقدير على العطف: قل يا محمَّد للمُجرمِ: ولو ترى[2].

سرُّ التَّعبير بـ(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

تعـدُّدُ دلالاتها إلـى الامتناع والتَّمنّي والتَّعجُّب

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾؛ لتعدُّد دلالاتها، فيجوز أن تكون (لو) هي الامتناعيَّةَ، فتكونَ دالَّةً على الشَّرط؛ أي: لو ترى حالهم لرأيت شيئًا عظيمًا، فالجوابُ محذوف[3]، ويجوز أن تكون للتَّمنّي، كأنَّه قال: وليتك ترى، والتَّمنّي لرسول الله

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 578.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428، وأبو جعفر النحاس، إعراب القرآن: 3/ 201.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.

ﷺ، كما كان التَّرجّي له في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة: 3]؛ لأنَّه تجرَّع منهم الغُصَص، ومن عداوتهم وضِرارهم، فجعل الله له تمنّيَ أن يراهم على تلك الصِّفة الفظيعة من الحياء والخزي والغمِّ؛ ليشمت بهم، ويجوز أن تكون بمعنى التَّعجيب من حال الكفّار وما حلَّ بهم[1].

بلاغة التَّعبير بالشَّرط وحذفِ جواب (لو):

بـيـانُ شـدَّةِ العـذاب وعـدمِ تصوُّر ماهيَّته؛ لتذهبَ النَّفس فيه كلَّ مذهب

يأتي النَّظم الكريم بالشَّرط في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ لتشويق السّامع إلى الجواب المُترتِّب على الشَّرط؛ انتظارًا لنتيجة الرُّؤية وتلهُّفًا إلى معرفتها، ولكنَّه حُذف هنا لأنَّ المُراد الإشارةُ إلى أهول وأشنع وأشدِّ ما يقع على المجرمين؛ إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيُّله[2]، فيُعطي اتِّساعًا في تصوُّر المحذوف، فتكثر التَّقديرات له، وتذهب فيه النَّفس كلَّ مذهب، فيكون التَّقدير: لَرأيتَ أمرًا عظيمًا، أو لَرأيتَ أسوأ حال تُرى[3]، فالحذف قائم كي يُصوِّر فظاعةَ حالهم وهول موقفهم بين يدَي ربِّهم، فلا يُتصوَّر العذاب الذي سيحلُّ بهم؛ لقوَّته وشدَّته.

وممّا يذكر في سرِّ حذف الجواب أنَّ (لو) لمّا ربطت إحدى الجملتين بالأخرى حتَّى صارتا جملةً واحدةً أوجَبَ ذلك لها طولًا فخُفِّفَ بالحذف، خصوصًا مع الدّلالة على ذلك، ويُضاف أيضًا لبيان سبب الحذف ملاحظةُ مواقع التَّفخيم والتَّعظيم، وكذلك لعلم المُخاطب أو لقصد المُبالغة؛ فلو صُرِّحَ بالجواب لوقف الذِّهن عند المُصرَّح به، فلا يكون له ذلك الوَقعُ[4]، والسّياق لا يأبى أن يكون الحذف لهَوانِهم؛ لأنَّه ما جرَّأهم على العصيان إلا صفة الإحسان، فلا يصلح لهم إلا الخزيُ والهَوانُ[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 360، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 360.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 183.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.

سرُّ التَّعبير عن العلم بالرُّؤية:

الثّابتُ في علم اللـه بمنزلة الواقع

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ دون العلم، فلم يقل: (ولو تعلم)؛ لأنَّ الثّابت في علم الله بمنزلة الواقع[1]، فإخبارُ الله تعالى أصدقُ من رؤيا العين، فحين يُخبرُ الله ﷻ بأمر فمعنى ذلك أنَّه أصدَقُ ممّا تَرى بعينك؛ لأنَّ النَّظر قد يغشاه ما يصرفه عن المرئيِّ، أمّا إخبار الله عن شيء فهو الحقُّ[2]، وإن كان أمرًا غيبيًّا، فالقرآن حين يُعبِّر عن أمر غيبيٍّ يأتي بالفعل: (يرى)[3]، مع جواز أن يكون من رُؤية العين[4]؛ لأنَّ إخبار الله تعالى لا يحتمل الشَّكَّ.

وقد يكون سرُّ التَّعبير بالرُّؤية دون العلم أنَّ معنى الآية مُتعلِّق بالمحسوس، وهذا مناسب لرؤية حال المجرمين يوم القيامة وهم ناكسو رؤوسهم، ومثل هذا المشهد يتعلَّق بالرُّؤية دون العلم.

دلالة التَّعبير بالمضارع في: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

تصويرُ حال المجرمين يوم يأتي مصداق ما كذَّبوا به

جاء التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ للدَّلالة على استحضار الصُّورة التي يؤول إليها حال المجرمين يوم القيامة، وكلِّ مَن سار على دربهم في إنكار البعث، وهذا الاستحضار له وقعُه الشَّديدُ في نفس السّامع، فضلًا عن تصوير المشهد أمام أعينهم.

دلالةُ حذف الفاعل والمفعول في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

سوءُ حال المجرمين غيرُ خافٍ على كلِّ من يتأتَّى منه رؤيةٌ

لم يُصرِّح النَّظمُ الكريمُ بفاعلِ الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ لغرضٍ دلاليٍّ يتمثَّل في العموم والشُّمول الذي لا يختصُّ براءٍ مُعيَّن، فأفادَ تناهي حالهم في الظُّهور حتَّى لا يختصَّ به مُخاطبٌ[5] دونَ مُخاطبٍ، فالحال أظهرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 220.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 711817.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 12/ 7043.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1048.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.

من أن يجهله أحدٌ، والمرادُ بيانُ كمالِ سوءِ حالهم، وبلوغُها من الفظاعةِ إلى حيثُ لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها براءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ يتعجَّبُ من هولِها وفظاعتِها[1].

ويحتملُ أن يكون خطابًا للرَّسول ﷺ دون غيره؛ لعلمه بعقاب الله لهم أكثرَ من غيره، ولما فيه من ترويحٍ عنه ﷺ؛ فإنَّهم كانوا يُؤذونه بالتَّكذيب[2].

وحُذِفَ المفعول أيضًا لإفادة العموم، وما يحملُه من التَّهويل والتَّشنيع، ويكون تقدير الكلام: (ولو ترى حالَ المجرمين وما هم فيه من الخزي والفضيحة وأنواع الكروب التي لحِقَتْ بهم لَرأيت أمرًا عظيمًا).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِذِ﴾ دونَ (إذا):

الحدَثُ المُترقَّبُ المتوقَّعُ منَ الله بمنزلة الموجود المقطوع في تحقُّقِه

آثرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بـ﴿إِذِ﴾ الدّالَّة على الماضي دونَ (إذا) التي تدلُّ على المستقبل، مع أنَّ تصوير حالة المجرمين وما يحصل لهم في الآخرة يُناسبُه التَّعبيرُ بـ(إذا)، التي تُفيد تحقُّق الوقوع في المستقبل، لكنَّ التَّعبير جاء بـ﴿إِذِ﴾؛ لأنَّ الحدَثَ المُترقَّبَ المتوقَّعَ منَ الله بمنزلة الموجود المقطوع في تحقُّقه[3]، فالحدَثُ دالٌّ على الاستقبال، وأشار التَّعبير بـ﴿إِذِ﴾ إلى تيقُّن الحدوث؛ لأنَّه منَ الله القادر المُهَيمن، مالك كلِّ زمان ومكان، فالثّابت في علم الله بمثابة الواقع، ويجوز دلالة ﴿إِذِ﴾ على المستقبل فتكونُ بمعنى: (إذا)[4].

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

كلُّ مُجرمٍ سينال جزاء قبيح عمله

تحتملُ (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ العهديَّة؛ أي: إنَّهم هم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 10]، بدليل التَّوعُّدِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 83.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 576.

بالنّار، وقولِهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا غيرَ مُوقِنين، وتحتملُ الجنسيَّة؛ أي: جنس المجرمين، وهؤلاء المجرمون من جملتهم[1]، فكلُّ مجرم - سواءٌ أكان معهودًا أم غير معهودٍ - سينالُ جزاء قُبح أعماله، فكان التَّعريف هنا دلالةً على كمالهم في الإجرام، وعراقَتِهم في الكفر.

وآثر النَّظم الكريم الوصفَ بـ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دونَ غيره منَ الأوصاف نحو (الظّالمون - الكافرون)؛ للتَّشنيع عليهم.

دلالةُ الإظهار دون الإضمار في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

بيانُ شدَّة الذَّمِّ والتَّوبيخ لهؤلاء المُنكرين

آثر النَّظم القرآنيُّ الإظهار في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ولم يقل: (ولو تراهم)؛ لقصدِ التَّسجيل عليهم بأنَّهم في قولهم ذلك مُجرمون؛ أي: آتون بجُرم، وهو جُرم تكذيب الرَّسول ﷺ وتعطيلِ الدَّليل[2]، والمراد بهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: 10]، فهو إظهارٌ في مقام الإضمار، ومعلومٌ عند النُّحاة أنَّ الرَّبط بالضَّمير هو الأصلُ في الكلام[3]، والتَّعبير بالضَّمير ليس فيه توبيخ وذمٌّ لهؤلاء، فيفوتُ بذلك الذَّمُّ والتَّشنيعُ عليهم، فكان الإظهارُ في موضع الإضمار واصفًا لحالهم القبيحة ذامًّا لهم، مُشهِّرًا بهم.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

ثباتُ المجرمين على ما يُخجِلُهم يوم القيامة

عدَلَ النَّظم الكريم عن الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دون (أجرموا)؛ للدَّلالة على ثبوت وصف الإجرام فيهم لدرجة أنَّه صار عنوانًا ووصفًا لهم، بخلاف التَّعبير بالفعليَّة؛ فإنَّه يدلُّ على تجدُّد فعل الإجرام منهم، والمقام

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82، وابن عطية: المحرر الوجيز: 4/ 360.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 647.

هنا يُناسبه التَّعبير بالاسميَّة؛ لأنَّ ذلك في يوم القيامة؛ فلا مجال لتجدُّدِ الفعل هناك.

نكتةُ التّعبير بـ﴿نَاكِسُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

بيانُ ذلِّ المجرمين وسوءِ العاقبة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ﴿نَاكِسُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ دون غيره منَ الأوصاف التي ذُكرت في مواضعَ أخرى، كقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: 43]، وقوله: ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: 5]، فخَصَّ المشهد هنا بتنكيس الرُّؤوس؛ لأنَّ النّاكس هو الذي يجعلُ أعلى الشَّيء إلى أسفلَ، وهي علامة الذُّلِّ والنَّدامة[1]، وهو نظير فعلهم في الدُّنيا من تقديم الأدنى على الأعلى، والحقُّ ﷻ سيفعل في كلِّ مُخالف في الآخرة من جنس ما فعلَ في الدُّنيا، وهؤلاء الذين نكَّسَ الله رؤوسهم في الآخرة فعلوا ذلك في الدُّنيا [2]، فالجزاء من جنس العمل.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بصيغةِ اسم الفاعل ﴿نَاكِسُواْ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ صفة النَّكس لرؤوسهم ثابتةٌ، وأنَّها حالة طويلة ممتدَّة يكونون عليها.

سرُّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾:

ثـبـاتُ الـخـزي لهم يوم القيامة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالجملة الاسميّة في قوله: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ دونَ الفعليَّة (ينكسون رؤوسهم)؛ لتقرير ثباتهم على نكسِ رؤوسهم، خجلًا وحياءً وخزيًا عندما تبدو مثالبُهم وهَناتُهم بصورة دميمة شوهاءَ تبعثُ على الهُزْءِ بهم والسُّخرية منهم، كأنَّ ذلك استمرَّ منهم، لا يرتفع لهم رأس، ولا يمتدُّ منهم طَرفٌ[3]، فالاسميَّة هنا مُشعِرة بهيئةٍ دائمةٍ لا تتغيَّر ولا تنمحي.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11816.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 521.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿رُءُوسِهِمْ﴾:

تخصيصُ الرَّأس بالذِّمِّ والمهانة؛ لأنَّـه يـحـوي أشرفَ الأعضاء

أضاف التَّعبير القرآنيُّ لفظ (الرُّؤوس) إلى ضمير الغيبة ﴿رُءُوسِهِمْ﴾؛ للنَّصِّ على أنَّ التَّنكيس لرؤوسهم هم دون غيرهم؛ لأنَّهم ساروا في طريق الإنكار للبعث، وهذا الإنكار فيه قلبٌ للحقيقة العقليَّة والشرعيَّة.

فائدةُ التّعبير بالعِنديّةِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

قـهـرُ المجرمين والتمكُّنُ منهم

للتَّعبيرِ بلفظ العِنديَّةِ دون غيرها من ألفاظ الظَّرفية نحو (أمام) فوائدُ، فهو دالٌّ على القهر والتَّمكُّن، فالعنديَّةُ عنديَّةُ السُّلطةِ؛ أي: وهم في حكم ربِّهم لا يستطيعون مَحيدًا عنه، فشبَّه ذلك بالكون في مكان مختصٍّ بربِّهم في أنَّهم لا يُفلِتُون منه[1]، ومع القهر والتمكُّن يكون بيان شدَّة الخجل؛ لأنَّ المربوبَ إذا أساء إلى الرَّبِّ ثمَّ وقف بين يدَيه يكون في غاية الخجل[2].

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾:

تـذكـيرُ الـنّـاس بضرورة العودة إلى الـلـه قبل فواتِ الأوانِ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالرُّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لما فيه من تذكيرهم بأنَّ مربوبَهم الحقيقيَّ هو الله الذي يقفون بين يديه، والتَّعبير بالرُّبوبيَّة مظِنَّة طلب التَّعطُّف والتَّرفُّق بهم، لكنَّهم يُقابَلون بالرَّفض التّامِّ لِما أرادوا؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما نسوا لقاء ربِّهم خذَلَهم الرَّبُّ ونسيَهم، فلم يأبَه لطلبِهم وإرادةِ رجوعهم.

بلاغةُ حذف جملةِ القول:

الإشـــارةُ إلى خجلهم وقلّة العناية بقولهم

جاءت جملةُ القول: (يقولون) أو (قائلين) حالًا أو في موضع الحال؛ إشارةً إلى غاية خجلهم الذي لا يحقُّ لهم معه التَّكلُّم[3]، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

يكون مع الخجلِ التَّهافتُ على النِّداء بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ للإسراع بالنِّداء طلبًا للإجابة.

والحذفُ دالٌّ على قلّة الالتفات لقولهم، وعدم العناية به بعد فوات الأوان، وممّا يُذكر في سرِّ حذف القول هنا أيضًا أنَّه جعلَ الوقفَ جائزًا عند قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1].

وقد قدَّر بعض العلماء فعلًا آخرَ، هو: (يستغيثون)[2]، إضافةً للفعل: (يقولون)، وفيه ملحَظُ طلب الغوث؛ لأنَّهم في موقف المهانة والصَّغار فكان تقدير: (يستغيثون) مُنسجمًا مع هذا المعنى.

دلالةُ النِّداء بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾:

الشُّعور المُطلق بالضَّعف وقلَّة النَّصير

دلَّ النِّداء من المجرمين بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ مع إضافتهم لفظَ الرُّبوبيَّة إلى ضميرهم على إحساسِهم بالضَّعف والهوان، وحاجتِهم إلى قوَّة كبرى يُعتَمَد عليها، فكان اختيار النِّداء بلفظ الرَّبِّ في قولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لما فيه منَ المُبالغة في الوصف[3].

والرَّبُّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيء إلى كماله شيئًا فشيئًا[4].

ويُضافُ إلى ذلك المناسبةُ بين لفظي: ﴿رَبِّهِمْ﴾ و﴿رَبَّنَآ﴾، فالعِنديَّة عند ﴿رَبِّهِمْ﴾، فناسب هذا النِّداءَ بـ﴿رَبَّنَآ﴾.

وقيلَ: إنَّ المجرمين تبرَّؤوا ممّا قالوا من إنكار البعث، ويقولون: (لا ربَّ لنا غيرُك)، وأنَّى لهم ذلك بعد فواتِ الأوان؟!.

دلالةُ حذف حرف النِّداء:

مُسارعةُ النّادمين إلى طلب الصَّفح والمعذرة

حذفُ حرف النِّداء من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، والتَّقديرُ: (يا ربَّنا)؛ لِما في الحذف من شعورهم بقربهم الشَّديدِ

(1) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 8.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.

من ربِّهم، فكان الحذف مُناسبًا لما عجَّلوا بطلبه؛ لهول الموقف، فلا يُريدون إطالة أمد وقوفهم بين يدي ربِّهم على هذه الحالة المُنكسرة أمام أعين النّاس.

سرُّ التَّعبير بالإبصار والسَّمع:

مُـحـاولـةُ المشركين تداركَ أسباب النَّجاة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإبصار والسَّمع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾؛ لأنَّهما مسؤولان عمّا يُحدِثُه المرء من حُسنٍ أو قُبحٍ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: 36]، كما أنَّ في توظيف الفعلين دلالةً واعترافًا بعدم نفعِهما عند مُجابهة الرُّسل، فكأنَّهم يقولون: (كنّا عُميًا وصُمًّا فأبصرنا وسمعنا)[1]، فكانت نعمتا البصر والسَّمع مُعطَّلتَين عن إدراك الحقِّ، بل كانتا رأسًا في مُحاربة الحقِّ والتَّقليلِ منه والسُّخرية من مبادئه وأتباعه.

نكتةُ حذف مفعولَي الإبصار والسَّمع:

اتِّـسـاعُ المعنى بتـعـدُّدِ المُبصَر والمسموع

نكتةُ الحذف هنا الاتِّساعُ في المحذوف على أوجُهٍ مُتعدِّدة، فيجوز أن يُقدَّر لكلٍّ من الفعلين مفعولٌ مناسب له ممّا يُبصرونه ويسمعونه، بأن يُقال: أبصرنا البعثَ الذي كنّا نُنكره وما وعدتَنا به على إنكاره، وسمعنا منك ما يدلُّ على تصديق رسلك ﷺ.

ويجوز أن يُقال: أبصرنا البعثَ وما وعدتَنا به، وسمعنا قولَ الرُّسل؛ أي: سمعناه سمعَ طاعةٍ وإذعانٍ.

ويجوزُ أن يُقال: أبصرنا قُبحَ أعمالنا التي كنّا نراها في الدُّنيا حسنةً، وسمعنا قولَ الملائكة لنا: إنَّ مرَدَّكم إلى النّار.

ويجوزُ أيضًا أنَّهم أرادوا: أبصرنا رسلَك، وسمعنا كلامَهم حين كنّا في الدُّنيا.

(1) الكشاف، الزمخشري: 3/ 510.

ويجوزُ: أبصرنا آياتك التَّكوينيَّةَ، وسمعنا آياتِك التَّنزيليَّةَ في الدُّنيا، فلك الحجَّةُ علينا وليس لنا حجَّة فارجِعْنا[1].

هذا، ويجوز أن تكون الهمزةُ للتَّصيير، وهذا معنًى من معاني (أفعلَ)، فيكون التَّقديرُ: (صِرْنا ممَّن يسمع ويُبصر)[2]، فلا يُحتاج إلى تقدير مفعول.

نكتةُ تقديم الإبصارِ على السَّمع:

مُعاينةُ الكفّار ما وعدهم الله ورسوله به يوم القيامة

نكتة تقديم الإبصار على السَّمع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ - مع أنَّ الغالب في آيات القرآن الكريم تقديمُ السَّمع على البصر - أنَّ الكلامَ عن المجرمين الذين كانوا في الدُّنيا يسمعون عن القيامة وأحوالها ولا يُبصرون، إلّا أنَّ ما يسمعونه كان يدخل في مجال الشَّكِّ والظَّنِّ، ولو تيقَّنوا لآمَنُوا، أمّا في الآخرة فقد أبصروا ما كانوا يسمعون عنه؛ لأنَّهم أصبحوا في مجال اليقين، وهو ميدانُ البصر (عينُ اليقين)، والآخرة ميدان الرُّؤية، وليست ميدانَ السَّمع، وقد قيلَ: (ليس الخبرُ كالمُعاينة)، فعندما رأوا في الآخرة ما كانوا يسمعونه ويشكُّون فيه تغيَّر الحالُ، ولذا اقتضى تقديمَ البصر على السَّمع[3].

وممّا يُذكر أيضًا في سرِّ التَّقديم ما اكتشفَه العلماء حديثًا من أنَّ سرعةَ انتقالِ الصُّورةِ تزيدُ على سرعةِ انتقالِ الصَّوتِ، فالصُّورةُ تنتقلُ بسُرعةِ ثلاثمئةِ ألفِ كيلو مترٍ في الثّانيةِ، أمّا الصَّوتُ فلا ينتقلُ إلّا بسرعةِ ثلاثمئةٍ وثلاثين مترًا في الثّانيةِ، فلمّا كان الحديثُ عن إنشاءِ السَّمعِ والأبصارِ قُدِّم السَّمعُ على البصرِ في سبعَ عشرةَ آيةً، وحينَ انصبَّ الحديثُ على فعلِ الإبصارِ، حيث إنَّ الصُّورَ تراها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 125.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 290.
(3) فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني: 70.

العينُ قبلَ سماعِ الصَّوتِ قُدِّم الإبصارُ على السَّمعِ، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1].

سرُّ التَّعبير بالإبصارِ دون الرُّؤية:

العلمُ بالشَّيء إمّا بالعين أو بالقلب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإبصار دون الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾؛ لِما تتميَّز به مادَّةُ الإبصار في هذا المشهد، وذلك لأنَّ مادةَ (بصر) تتميَّز بالوضوح في رؤية الشَّيء، بخلاف مادَّة (رأى)؛ فإنَّها تدلُّ على العلم بالشَّيء إما بالعين أو بالقلب، ولمّا كانت مادة (بصر) تدور باستعمالاتها حول الإدراك بحاسَّة البصر، وهي العين، أو الإدراك بالبصيرة، وهي القلب أو العقل، والمشهد هنا يُناسبه التَّعبير بالبصر؛ لأنَّه يتناسب مع ما رأوه أمام أعيُنهم من الآيات الكونية في مشهد يوم القيامة؛ لذلك آثر البيان القرآني التَّعبير بالبصر دون الرُّؤية.

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾:

تمنّي الكفّار الرُّجوعَ لعمل أعمالٍ صالحة

آثر القرآن الكريم العطفَ بالفاء دون غيرها من حروف العطف؛ لأنَّها تحمل معنى الإفصاح؛ فهي الفاء الفصيحة[2]، التي تُفصح عن شرط مُقدَّر، فكأنَّ الكلامَ: (فإنّا أيقنّا وأبصرنا وسمعنا فارجِعْنا)، والحذف هنا دالٌّ على شدَّة تمنّيهم الرُّجوعَ إلى الدُّنيا؛ تمسُّكًا بالأمل في البُعد عن العذاب الشَّديد.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالفاء أيضًا: أنَّها تُفيد سرعة التَّرتيب والتَّعقيب؛ فبمُجرَّد البصر والسَّماع طلبوا الرُّجوع إلى الدُّنيا للعمل الصّالح.

اتِّحادُ قول المجرمين ورجائهم عندما كُشِفَ لهم جزاؤهم

علَّةُ اقتران الفعل بـ(نا) الفاعلين:

اقترن الفعل ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ بـ(نا) الفاعلين لأمرين: **الأول:** دلالة

(1) محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: 1/ 133.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 578.

الاتِّحاد في القول والرَّجاء، فكأنَّ فريق المجرمين اتَّفقوا على هذا القول بعد تأكُّدهم منَ العذاب المُهين، **والثّاني**: التَّناسب الحاصل في الأفعال التي اقترنت بـ(نا)، وهي: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، ويلي ذلك التَّعبيرُ بالجمع ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

نكتةُ اختيار الفعل (رجع) دونَ غيره:

الإلحاحُ في الطَّلب مع بيان كذبِهم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ(الرُّجوع) دون (الرَّدِّ) في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالرَّجعُ في اللغة: ردُّ الشَّيء إلى أوَّل حاله؛ بخلاف الرَّدِّ؛ فهو صرف الشَّيء عن وجهه؛ لذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلقًا، وهذا ما يتناسب مع حال المُجرمين؛ فهم يتمنَّون الرُّجوع إلى الدُّنيا على أيِّ حالة، والفعل (رجع) فيه دلالةٌ على الإلحاح على تغيير حالهم البائسة؛ لأنَّ الرُّجوع انقلاب الشَّيءِ إلى حال قد كان عليها[1]، فحالهم التي كانوا عليها حال التَّكذيب والصَّمم والإعراض عن الدَّعوة، ومن ثمَّ فالفعل يشي من طَرْفٍ خفيٍّ بأنَّهم كاذبون في دعوتهم، مُستمرُّون في الخداع، مُنغمسون في التَّقليل من أنفسهم بكذبهم.

دلالةُ صيغة الأمرِ في: ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾:

بيانُ ذلِّ الكفّار وهوانِهم مع اليأس

دلَّ أسلوبُ الأمر هنا على الدُّعاء، وهذا تعبير سيبويهِ في باب الأمر والنَّهي، فالدُّعاء بمنزلة الأمر والنَّهي، وإنَّما قيل: (دعاءٌ)؛ لأنَّه استُعظِمَ أن يُقال: (أمرٌ أو نهيٌ)[2]، فخطاب اللّه ﷻ ينبغي أن يُعبَّر عنه بالألفاظ التي تليق بالذّات الإلهيَّة، فكان الأولى أن يُقال: فعلُ دعاءٍ، لا فعلُ أمرٍ، فدلَّ الفعل ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ على الدُّعاء والتَّضرُّع والخشوع، تمهيدًا للاستجابة إلى رجائهم ودعائهم، وفيه منَ الضَّعف والهوان وعدم تملُّك أمرهم ما فيه، فهم والذِّلَّة والمسكنةُ سواءٌ.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 492.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 142.

دلالةُ حذف مُتعلَّق الرُّجوع:

شدَّة رغبة المجرمين بالرُّجوع الذي سيتغيَّر حالهم بعده

حُذِفَ مُتعلَّق الرُّجوع للفعل: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾؛ لأنه يُعلَم من سياق الكلام، فهم قد عُرضوا على النّار، ومن ثمَّ فمُتعلَّق الرَّجوع هو: (إلى الدُّنيا) التي هي دار الأعمال، فهؤلاء لا يُريدون ذكر ما هو معلوم، والحذف دالٌّ هنا على أيِّ رجوع مهما كان أمره، فالمهمُّ أن يرجعوا، ففي حذف المُتعلَّق بيانُ شدَّة الرَّغبة في هذا الرُّجوع الذي سيتغيَّر حالُهم بعدَه.

دلالةُ الموقع الإعرابيّ لـ﴿نَعۡمَلۡ﴾:

بيانُ الرَّغبة في العمل تخلُّصًا من شؤم المصير

دلَّ الجزم في الفعل ﴿نَعۡمَلۡ﴾ على أنَّه مُتعلِّقٌ بما قبله، وهو فعلٌ سُبِقَ بفعل الأمر ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾، وللنُّحاة طريقتان في إعرابه: الأولى: أنَّ الفعل المجزوم واقعٌ في جواب الطَّلب فجُزِمَ به، والثّانية: أنَّ الفعل مجزوم على أنَّه جواب شرط محذوف[1]، وتقدير الجملة: (إن نرجعْ نعملْ صالحًا)، وارتباط الجواب بما قبله ارتباطُ سبب ونتيجة، وهذا يرسم صورة الصّادق الرّاغب في العمل تلوَ العمل كي يتخلَّص من شُؤم عاقبتِه، وعلى الطَّريقة الثّانية بحذفِ أداة الشَّرط وفعل الشَّرط طلبًا للإسراع في العمل الصالح وتخلُّصًا من العذاب المُهين.

نكتةُ التَّعبير بالعمل دون الفعل:

في العمل قصديَّةٌ ومُثابرةٌ وامتدادُ زمانٍ ليست في الفعل

آثر النَّظم التَّعبير بالعمل دون الفعل؛ لأنَّ العمل أخصُّ من الفعل، فكلُّ عمل فعلٌ، ولا ينعكس[2]، وهذا يحمل قصديَّة الفعل والتَّوجُّهَ إليه؛ لأنَّ فيه امتدادَ زمان[3] غير الفعل، ومن ثمَّ عبَّر عن الفعل بـ﴿نَعۡمَلۡ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أن ما كان يُطلب منهم في الدُّنيا هو العمل الصّالح، الذي ذكره القرآن في آياتٍ كثيرةٍ في مدحه لأهل

(1) السيوطي، همع الهوامع: 2/ 540.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109 - 110.
(3) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

الإيمان؛ لجمعِهم بين الإيمان والعمل الصّالح؛ لذلك كان مطلبُهم الرُّجوعَ للعمل الصّالح.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿نَعۡمَلۡ﴾:

المُثابرةُ على الأعمال الصّالحة وعدمُ التَّسرع في أدائها

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿نَعۡمَلۡ﴾؛ لأنَّه يرمي إلى ديمومةِ العمل واستمرارِه؛ أملًا في الخروج من المأزق الذي هم فيه، فكأنَّ المقصود هنا المُثابرة على الأعمال الصّالحة لا الإتيانُ بها مرَّةً أو بسرعةٍ.

نكتةُ تنكير في قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾:

عموميَّةُ صلاح العمل مع تعظيمِه

أفاد التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ العمومَ والشُّمولَ؛ لكلِّ عملٍ يُعمل، في إشارةٍ منهم إلى التَّمسُّكِ بحبال الأمل والنَّجاة ممّا ينتظرهم من مصير، وقد يكون التَّنكير للتَّعظيم؛ فإنَّ العمل الذي سيقومون به شأنُه عظيم؛ ليُناسب عظمةَ الموقف وشدَّتَه، فكأنَّ التَّنكير أفاد الرَّغبة في كمال العمل والتَّناهي فيه؛ لتعويض ما فات.

دلالةُ التَّعبير بالإفراد في: ﴿صَٰلِحًا﴾ دونَ الجمع:

العملُ الصّالح ليس من طباع المجرمين الثّابتةِ التي درَجوا عليها وإنَّما هي أمرٌ مُحدَثٌ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمفرد في: ﴿صَٰلِحًا﴾ دون الجمع (صالحات)؛ للإشارة إلى أنَّ العمل الصّالح ليس من طِباعهم الثّابتةِ التي درَجوا عليها، وإنَّما هي أمرٌ مُحدَثٌ، فعبَّر عن ذلك بالمُفرد: ﴿صَٰلِحًا﴾، ولأنَّ التَّعبير بالجمع فيه الإشارة إلى تفخيمه؛ والدَّلالةُ على التَّعدُّد والتَّنوُّع، وهذا غير مُرادٍ هنا؛ لأنَّهم كاذبون في دعواهم الإيمانيَّة، ومعلوم أنَّ الإيمان حتى يثبُتَ ويقوى يلزمُه كثرة الأعمال الصّالحة وتعدُّدُها وتنوُّعها[1]، وهم على غير إيمانٍ أصلًا؛ لأنَّهم مُدَّعون.

(1) الأمين الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 131.

وكذلك التَّعبير بالمُفرد أخفُّ في الاستعمال من التَّعبير بصيغة الجمع، والموقف يُناسبه هنا التَّعبير بالمفرد مراعاةً للحالة التي هم عليها.

سرُّ فصل قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ الجملة استئنافيَّةٌ تُفيد التَّعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصّالح الذي زعموه في قولهم: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّهم صاروا مُوقنين بحقيقة ما دعاهم إليه الرَّسول ﷺ.

إيقانُ المُجرمين يومَ القيامة بصدق ما دُعوا إليه منَ الإيمان في الدُّنيا

وقد يُقال: إنَّه استئناف لم يُقصد به التَّعليل، وعلى التَّقديرين هو مُتضمِّن لادِّعائهم صحَّةَ الأفئدة، والاقتدارَ على فهم معاني الآيات والعمل بما يُوجِبُه[1].

سرُّ التّعبير بالجملة الاسميَّة دون الفعليَّة:

جاء التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ دون الفعليَّة؛ للدَّلالة على أنَّهم ثابتون على الإيقانِ وكمالِ رغبتهم فيه، بعد أن ظهرت أمامهم العواقب المُنادية عليهم بالويل والثُّبور؛ لذلك كان قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يعني أشدَّ الإيقان وأكملَه بقدرة الله وعظمتِه، وكلُّ ذلك للجدِّ في الاستدعاءِ؛ طمعًا في الإجابةِ إلى ما سألوه[2] من إعادة وإرجاع لبدء حياة جديدة مبدَؤُها ومُنتَهاها العمل الصّالح.

ثباتُ يقين المجرمين بقدرة الله المطلقة

وقد يُضاف إلى ذلك بيانُ حالهم ساعة التَّكلُّم، فالمعنى: (إنّا مُوقنون أنّا في الحال آمنّا)[3].

دلالةُ التَّأكيد بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ على التَّأكيد، وفائدتُه إظهار ثباتهم على اليقين وكمالِ رغبتهم فيه، وممّا يُذكر

ازديادُ المجرمين ثباتًا في ادِّعائهم الإصلاحَ لو مُنحوا فرصةَ العودة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 125.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

في سرِّ التَّأكيد بـ (إنَّ) أنَّها بمنزلة إعادة الجملة مرَّتين[1]، فبدلًا من أن يقولوا: (أيقَنّا أيقَنّا)، قالوا: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، مع ملاحظة أنَّ اسم الفاعل ﴿مُوقِنُونَ﴾ كذلك يدلُّ على الثَّبات مُقارنةً بالفعل، فتعدَّدت التَّأكيدات منَ الكفّار لمُحاولة إثبات صدقِهم وندمِهم.

نكتةُ حذف النُّون في: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

اختصارُ العبارة لتتناسبَ مع مُسارعتهم في القول

حُذفت النُّون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ لمناسبة ما جاء في السُّورة من طريقة التَّوكيد، فكلُّ الآيات التي أُكِّدت بـ (إنَّ) مع النُّون جاءت بنون واحدة لا نونين، فكان التَّناسب حاصلًا في التَّعبير بنون واحدة مع (إنَّ) التَّوكيديَّة.

وقد يُقال: إنَّ حذف النُّون سببُه السُّرعة في القول وعدمُ تفصيل حالهم عكسَ (إنَّنا)؛ لأنَّ زيادة المبنى دالَّة على زيادة المعنى.

سرُّ التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ دونَ غيرها:

الإيمان لفظٌ عامٌّ واليقين لفظٌ خاصٌّ

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ دونَ (مؤمنون)؛ لأنَّ اليقينَ من صفة العلم فوق المعرفة والدِّراية وأخواتها، يُقال: علمٌ يقينٍ، ولا يُقال: معرفةٌ يقينٍ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[2]، أمّا الإيمان فلفظ عامٌّ يُطلق على عدد منَ الأشياء؛ فقد يكون تارةً اسمًا للشَّريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ، وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: 69]، ويُوصف به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا باللّه وبنبوَّته، وتارةً يُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19]، ويُقال لكلِّ واحدٍ من الاعتقاد والقول الصِّدق والعمل الصّالح: إيمانٌ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 188.
(2) الراغب، المفردات: (يقن).
(3) الراغب، المفردات: (أمن).

ويصلحُ أن يكون اليقينُ نتيجةً للإيمان، فالإيمان مرحلة من مراحل اليقين؛ لأنَّ المشهد يتعلَّق بأحوال الآخرة وما فيها من جزاءٍ وعقاب للكافرين، الذين كانوا يُنكرون أمور البعث في الدُّنيا؛ فلمّا رأوا ذلك رأيَ العين عبَّروا عنه باليقين، ولأنَّ الإيمان يكون في الدُّنيا وليس في الآخرة؛ فلا يتناسبُ معها التَّعبير بالإيمان.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ قدرة المُجرمين على الفهم والعلم ولكنْ بعد فوات الأوان

آثر النَّظم التَّعبير باليقين في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ لبيان ادِّعائهم صحَّةَ الأفئدةِ والاقتدارَ على فهم معاني الآياتِ والعمل بمُوجبِها، كما أنَّ ما قبله ادِّعاءٌ لصحَّة البصر والسَّمع، كأنَّهم قالُوا: (وأيقَنّا وكنّا من قبلُ لا نعقلُ شيئًا أصلًا)[1]، ففي التَّعبير إشعارٌ بالنَّدامة والحسرة على ما فاتهم منَ الإيقانِ بقدرة اللّه وعظمتِه، وفيه طمع فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدُّنيا، وأنَّى لهم ذلك، فقد حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّه، فإنَّهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبون[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق: ﴿مُوقِنُونَ﴾:

إفادةُ العمومِ وتناسبُ رؤوسِ الآي

حُذِفَ مُتعلَّق قوله: ﴿مُوقِنُونَ﴾ لأمرين: **الأوَّل:** اتِّساعُ المعنى المترتِّبِ على حذف المُتعلَّق، فيجوز أن يكون المحذوف: (بالبعث)، أو (بالذي قال الرَّسول)[3]، **الثّاني:** تناسبُ رُؤوسِ الآي، وذلك أنَّ الآيات تنتهي بالنُّون.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُرم والفِسقُ والكفرُ:

الجُرمُ يُستعمل للذَّنب الغليظ

الجُرم لا يُطلق على مُطلقِ الذَّنب، إنَّما يُطلق على الذَّنب الغليظ، فالمُجرم مَن حمَلَ جُرمًا[4]، وكلُّ مُجرمٍ في القرآن قُصِدَ به الكافرُ[5]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 291.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 435.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).
(5) الكفوي، الكليات فصل الميم، ص: 802.

أمّا الفِسقُ فخروجٌ عن حجر الشَّرع، وذلك من قولهم: (فَسَقَ الرُّطَبُ)، إذا خرج عن قشره، وهو أعمُّ منَ الكفر، ويقع بالقليل منَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعُورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يُقالُ: (الفاسقُ) لمَن التزم حُكمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيلَ للكافر الأصليِّ: (فاسقٌ) فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمَه العقل واقتضَتْه الفطرة، قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: 55]؛ أي: مَن يستُر نعمةَ الله فقد خرج عن طاعته، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾، فقابَلَ به الإيمانَ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[1].

الإبصارُ والرُّؤيةُ والنَّظر:

لا يلزم من نفي النَّظر نفيُ الإبصارِ

النَّظرُ: تقليبُ البصر والبصيرة لإدراك الشَّيء ورُؤيته، وقد يُرادُ به التَّأمُّل والفحصُ، وقد يُرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحص، وهو الرَّويَّةُ، ويُستعملُ النَّظر في التَّحيُّر في الأمور، نحو قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ [البقرة: 55][2]، أمّا الرُّؤيةُ فأصلُها رؤية العين، ثمَّ استُعملت في العلم؛ لوقوع العلم مع الرُّؤية، كما أنَّ أصل البصر بصرُ العين، ثمَّ سُمّي العلمُ بصيرة وبصرًا؛ لأنَّه قد يقع مع بصر العين ورُؤية العين[3].

ومنَ الفروق بين النَّظر والبصر أنَّه لا يلزم من نفي النَّظر نفيُ الإبصار، لجواز قولهم: (نظرتُ إليه فلم أُبصره).

(1) الراغب، المفردات: (فسق).
(2) الراغب، المفردات: (نظر).
(3) العسكري، الأشباه والنظائر، ص: 236.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»